

سورة الكهف (الآيات: 25 - 27)

8

٨

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف مدة بقاء الفتية في الكهف.
- 2- أن أدرك إحاطة علم الله تعالى بعالمي الغيب والشهادة.
- 3- أن ألجأ إلى الله تعالى في جميع أمري معتصماً بكتابه المبين.

تمهيد

بعد أن وجه الله نبيه وأمته معه إلى دوام ذكر الله، والتماس علم الغيب وطريق الرشد من عنده، جاءت هذه الآيات تطلع النبي ﷺ على شيء من خبر أهل الكهف، وهو مدة مكثهم نياماً في كهفهم، موجهة النبي ﷺ وأمته من بعده إلى مداومة تلاوة القرآن، فهو مصدر العلم الحقيقي. فما مدة لبث أهل الكهف في كهفهم؟ ومن أين ينبغي أن نستمد أنباء الغيب؟ وما واجبنا نحو كتاب الله تعالى؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَفْعِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ۝٢٥﴾ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لِلنَّعْمِ مِنْ دُونِهِ، وَمَنْ وَلِيَ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾ وَأَنْتُمْ أَتُوحَىٰ إِلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّكُم مَّا لَا تُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف: 25-27]

الفهم

الشرح:

وَلَبِثُوا: ومكثوا.

غَيَّب: ما غاب عن الخلق.

حُكِّمَهُ: أمره وقضائه.

استخلاص مضامين الآيات:

1 - ما مدة بقاء الفتية في كهفهم؟

2 - ما الواجب على المسلم تجاه كتاب الله؟

التفسير

اشتملت آيات الدرس على ما يأتي:

أولاً: مدة لبث الفتية في الكهف:

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ أي بقوا فيه نياماً في فجوة منه. وقوله: ﴿كَفَعِلِهِمْ﴾ نسبه إليهم لأن الإضافة تكون لأدنى ملابسة.

قوله: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ الجمهور بتنوين «مِائَةٍ» ونصب «سِنِينَ» على البدل من «ثَلَاثَ مِائَةٍ» وعطف البيان، وقيل: على التمييز. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة «مائة» إلى «سِنِينَ» وترك التنوين، وكأنهم جعلوا «سِنِينَ» بمنزلة سنة؛ إذ المعني بهما واحد. قال أبو علي الفارسي: إذ هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلاثمائة رجل وثوب، قد تضاف إلى الجموع.

وفي القرطبي مثل هذا التوجيه للقراءتين، إلا أنه قال: «وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ بِتَنْوِينِ مِائَةٍ وَنَصَبِ سِنِينَ، عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، أَي سِنِينَ ثَلَاثِمِائَةٍ فَقَدَّمَ الصِّفَةَ عَلَى الْمَوْصُوفِ... قَالَ الْفَرَّاءُ وَالْكَسَائِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: النَّقْدِيرُ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ سِنِينَ ثَلَاثِمِائَةٍ» [الجامع

لأحكام القرآن: 5/ 252].

وروي عن قتادة ومطر الوراق وغيرهما أن قوله: ﴿وَلَيْتُوا فِي كَفْعِهِمْ﴾ الآية، هو حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك، واحتجا بقراءة عبد الله بن مسعود: «وقالوا لبثوا في كهفهم». ثم أمر الله نبيه بأن يرد العلم إليه رداً على مقالهم وتقييدا له. قال الطبري: وقال بعضهم: لو كان ذلك خبراً من الله، لم يكن لقوله قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا وجه مفهوم.

قال ابن عطية رحمه الله: «أين ذهب بهذا القائل؟! وما الوجه المفهوم البارِع إلا أن تكون الآية خبراً عن لبثهم، ثم قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ فحَبَرُهُ هذا هو الحق من عالم الغيب، فليزل اختلافكم أيها المخَرَّصون». ثم قال: «وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿وَلَيْتُوا فِي كَفْعِهِمْ﴾ الآية، خير من الله تعالى عن مدة لبثهم، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ فقال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعتار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله نبيه أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمره الله أن يرد علم ذلك إليه، فقوله على هذا التأويل: ﴿لَبِثُوا﴾ الأول، يريد في نوم الكهف، و﴿لَبِثُوا﴾ الثاني، يريد بعد الإعتار موتى إلى مدة محمد عليه السلام، إلى وقت علمهم بالبلى، على الاختلاف الذي سنذكره بعد، وقال مجاهد: إلى وقت نزول القرآن، وقال الضحاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم إنه لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا تَسْعاً﴾ لم يدر الناس أهي ساعات، أم أيام، أم جمع، أم شهور، أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمره الله برد العلم إليه، يريد في التسع فهي على هذا مبهمة، وظاهر كلام العرب والمفهوم منه أنها أعوام».

وفي القرطبي عن القشيري قال: لَا يُفْهَمُ مِنَ التَّسْعِ تِسْعُ لَيَالٍ، أَوْ تِسْعُ سَاعَاتٍ؛ لِسَبْقِ ذِكْرِ السِّنِّينَ، كَمَا نَقُولُ: عِنْدِي مِائَةٌ دِرْهَمٍ وَخَمْسَةٌ، وَالْمَفْهُومُ مِنْهُ خَمْسَةُ دَرَاهِمٍ - يعني بدلالة السياق -. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ: ﴿وَأَزْدَادُوا تَسْعاً﴾ أَي: أَزْدَادُوا لُبُثَ تِسْعٍ، فَحُذِفَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَيْتُوا فِي كَفْعِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ قَالُوا سِنِينَ أَمْ شُهُورٍ أَمْ جُمُعٍ أَمْ أَيَّامٍ؟ فَانْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿سِنِينَ﴾. وَحَكَى النَّقَّاشُ مَا مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَبِثُوا ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ بِحِسَابِ الْأَيَّامِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِخْبَارُ هُنَا لِلنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ ذُكِرَتِ التَّسْعُ؛ إِذِ الْمَفْهُومُ عِنْدَهُ مِنَ السِّنِّينَ الْقَمَرِيَّةِ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ

مَا بَيْنَ الْحِسَابَيْنِ. وَنَحْوَهُ ذَكَرَ الْغَزَنَوِيُّ، أَيُّ: بِاخْتِلَافِ سِنِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ لِأَنَّهُ يَتَفَاوَتُ فِي كُلِّ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ سَنَةٍ سَنَةً، فَيَكُونُ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ تِسْعَ سِنِينَ. [الجامع لأحكام القرآن: 5 / 251 - 252].

وهذه إحدى آيات الإعجاز في القرآن الكريم، حيث ذكر مدة لبث أصحاب الكهف ثلاثمائة سنة حسب التقويم الشمسي، ثم ذكر زيادة تسع سنين حسب التقويم القمري المعهود عند العرب، للفارق بين السنة الشمسية المكونة من 365 يوما وربيع يوم، والسنة القمرية المكونة من 354 يوما، ومن مجموع الأحد عشر يوما تجتمع سنة في كل ثلاث وثلثين سنة، والعرب الذين خوطبوا بهذه الآية من القرآن الكريم لم يكونوا ممن لهم خبرة بهذه العلوم، فيكون مجيء العلم بها من جهة النبي ﷺ وهو النبي الأمي آية باهرة من آيات نبوته ﷺ.

ثانيا: اختصاص الله تعالى بعلم الغيب:

قال تعالى: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه تقديم الخبر - وهو شبه الجملة - على المبتدأ، وذلك يفيد الحصر، كما يدل قوله: ﴿لَهُ﴾ على الاختصاص. قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لله علم غيب السموات والأرض، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يخفى عليه شيء، يقول: فَسَلِّمُوا لَهُ عِلْمَ مَبْلَغِ مَا لَبِثْتَ الْفِتْيَةُ فِي الْكُهْفِ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ سِوَى الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». [جامع البيان: 9 / 232].

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ، وَأَسْمَعْ﴾، قال الإمام الطبري رحمه الله: «أبصر بالله وأسمع، وذلك بمعنى المبالغة في المدح، كأنه قال: مَا أَبْصَرَهُ وَأَسْمَعَهُ. وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: مَا أَبْصَرَ اللَّهُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَأَسْمَعَهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ» ثم أسند عن قتادة قوله: ﴿أَبْصِرْ، وَأَسْمَعْ﴾ فَلَا أَحَدَ أَبْصَرَ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَسْمَعَ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى». [جامع البيان: 9 / 232].

وقوله: ﴿أَبْصِرْ، وَأَسْمَعْ﴾ هي عند النحويين صيغة تعجب، وهي فعل ماض جاء على صيغة الأمر، والباء في ﴿يُـ﴾ حرف جر زائد، والهاء مفعول به مجرور بحرف الجر الزائد في محل نصب، والفاعل ضمير مستتر في قوله: ﴿أَسْمَعْ﴾ وجوبا. وهو نظير قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مريم: 37].

وعلى هذا التفسير فالضمير في ﴿أَبْصِرْ﴾ عائد على الله تعالى. ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿أَبْصِرْ﴾ أي: بوحيه وإرشاده هُداً وحججك والحق من الأمور. ﴿وَأَسْمِعْ﴾ به العالم، فيكونان فعلاً أمر، لا على وجه التعجب.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ يرجع إلى أصحاب الكهف، فيكون المعنى: هذه قدرته وحده، لم يوالهم غيره فيتلطف بهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم. ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار ومشائقيهم، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد. ويحتمل أن يرجع إلى العباد جميعاً. و﴿مِّنْ﴾ من قوله: ﴿مِّنْ وَلِيٍّ﴾ صلة زائدة لتوكيد النفي، وقوله: ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ خبره شبه الجملة قبله.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾، أي: لا يجعل الله معه في قضائه وحكمه في خلقه أحداً سواه شريكاً، بل هو المتفرد بالحكم والقضاء والتصرف والتدبير فيهم كيفما شاء وأحب، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

وقرأ الجمهور ﴿وَلَا يَشْرِكُ﴾ بالياء على معنى الخبر عن الله تعالى، وقرأ ابن عامر «ولا تشرك» بالتاء والجزم، على جهة النهي للنبي عليه السلام، فيكون قوله: ﴿وَلَا تَشْرِكُ﴾ عطفاً على ﴿أَبْصِرْ﴾ و﴿أَسْمِعْ﴾.

ثالثاً: أمره تعالى بتلاوة القرآن، والالتجاء إليه:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا مِن كِتَابِ رَبِّنَا﴾، من قرأ ﴿وَلَا تَشْرِكُ﴾ بالنهي، عطف قوله: ﴿وَإِذْ﴾ عليه، ومن قرأ ﴿وَلَا يَشْرِكُ﴾، جعل هذا أمراً بدئياً به كلام آخر ليس من الأول. وكان هذه الآية في معنى الإعتاب للنبي عليه السلام، عقب العتاب الذي كان على تركه الاستثناء في قوله: ﴿وَإِذْ كَرَّرْنَا إِذْ أَنْسَيْتَ﴾، كأنه يقول: هذه أجوبة الأسئلة، فاتل وحي الله إليك، أي: اتبعه في أعمالك، وقيل: اسرد بتلاوتك ما أوحى إليك من كتاب ربك.

وقوله: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِنَا﴾، أي: لا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف. وقال الطبري: «لَا مُغَيِّرَ لِمَا أَوْعَدَ بِكَلِمَاتِهِ أَهْلَ مَعَاصِيهِ وَالْعَامِلِينَ بِخِلَافِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ

إليك». [جامع البيان: 15 / 234].

وقوله: ﴿وَلَرَجَعِي إِلَىٰ دُونِي، مُلْتَحِدًا﴾ أي: ليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند. قال الطبري: «يَقُولُ: وَإِنْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ لَمْ تَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ فَتَتَّبِعْهُ وَتَأْتَمْ بِهِ، فَتَالِكَ وَعِيدُ اللَّهِ الَّذِي أَوْعَدَ فِيهِ الْمُخَالِفِينَ حُدُودَهُ، لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَوْئِلًا تَتْلُ إِلَيْهِ وَمَعْدَلًا تَعْدِلُ عَنْهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ مُحِيطَةٌ بِكَ وَبِجَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الْهَرَبِ مِنْ أَمْرِ أَرَادَ بِهِ» [جامع البيان: 15 / 234].

رابعاً: لطائف وفوائد:

- بين كلمتي ﴿أَمَدًا﴾ و﴿مُلْتَحِدًا﴾ سجع مطرف، والسجع من المحسنات البديعية، وهو توافق الفاصلتين أو الفواصل في الحرف الأخير منهما «القافية»، والفاصلة هي الكلمة الأخيرة من جملة مقارنة لأخرى، وتسمى كل واحدة من الجملتين قرينة.

- في قوله تعالى: ﴿وَلَرَجَعِي إِلَىٰ دُونِي، مُلْتَحِدًا﴾، تنبيه للعبد أن لا يرجع في أموره كلها إلا إلى ربه تبارك وتعالى، فهو الغني الحميد، الذي لا ملجأ للعبد منه إلا إليه، وهو وحده من يعيذ عبده من كل ما يخيفه، ويكفيه سائر ما يهيمه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 35].

- في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾، تنبيه على أن تلاوة القرآن الكريم من وظائف النبوة وأساليب التزكية التي قامت عليها دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ومسلكه في التربية والتعليم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِهَتِنَا أَنْ يَخْلُقُوا رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَیْسَ بِشَايِئِينَ﴾ [الجمعة الآية 2]

التقويم

- 1- ما الإعجاز المستنبط من حديث الآيات عن مدة مكث الفتية في الكهف؟
- 2- أعدد مرجع الضمير في ﴿لَقَمْر﴾ من قوله تعالى: ﴿مَا لَقَمْرٌ مِنْ دُونِي، مِنْ وَلِيٍّ﴾؟ وما القيمة المستفادة من ذلك؟
- 3- أذكر القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ والمعنى على كل قراءة.

الاستثمار

قصة أصحاب الكهف: دروس وعبر.

- أقوم بتعاون مع أصدقائي وتحت إشراف الأستاذ(ة) بتكوين مجموعات لإنجاز ما يأتي:
- إبراز المضامين الإجمالية لقصة أصحاب الكهف.
- بيان العبر والدروس والقيم المستنبطة من القصة.
- صياغة خلاصة تركيبية لنتائج أعمال المجموعات ومناقشتها.

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيتين: 28 - 29 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

- 1- ما سبب نزول الآية 28 من سورة الكهف؟
- 2- أذكرُ القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿بِالْعَدْوِ﴾.
- 3- أُبينُ المراد بالكلمات الآتية: تَعْدُ - كَالْمُهْلِ - مُرْتَبَعًا.